من الإعجاز البيانى في القرآن الكريم

دكتور / محمد حسين على
الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات
جامعة الأزهر بسوهاج

مقـــــدمة

بسـم الله الرحمن الرحيـم

الحمـد للـه رب العالمين • خـلق الانسان علمـه البيـان ثم قـال لرسوله ﷺ « اقـرأ باسـم ربك الذى خلق خلق الانسان من عـلق اقـرأ وربك الأكـرم الذى عـلم بالقـلم عـلم الانسان مالـم يعـلم » •

والصلاة والسلام على سـيد الأولين والآخرين وخاتم الرسل الكـرام أجمعين ، صلى الله عليـه وعلى آلـه وأصحابه أجمعين ومنحنى وإياكـم الثـواب والأجـر إنـه نعـم المـولى ونعـم النصـير •

وبعـــد ••

فهـذه إطـلالة متواضعة عى قمـة القمـم وعظمـة من لدن رب البشـر ، هـذه كلمـات قصـدت بهـا وجـه اللـه العـلى القـدير أضعها بين يـدى القارىء ليرى بعينـه الباصرة وبصيرته النـافذة كيف أن البيـان القـرآنى عظيـم وكيف أنه سـيظل هـذا البيـان عظيمـا • إن لـه لحلاوة وإن عليـه لطـلاوة وأن أعـلاه لمثمـر وإن أسـفله لمغدق وأنـه يعـلو ولا يعـلى عليـه •

فهـذه أبحـاث سـتة عنونت لهـا بعنـوان : من الاعجـاز البيـانى فى القـرآن الكريم تناولت فى كـل مبحـث منهـا جانبـا من البيـان المعجـز والاعجـاز البيـانى .

والله أسـأل أن ينفـع بهـا وهـو حسبى ونعـم الوكيل ..

غـرة رمضان العظـم سـنة ١٤١٥ هـ

المـوافق أول فبـراير سـنة ١٩٩٥ م

الدكتور / محمـد حسـين على محمـود

أسـتاذ الأدب المسـاعد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات

جامعة الأزهـر ـ سوهاج

المبحـــث الأول

الذى يلفت النظـر الى حـد بعيـد أن الكتب السماوية التى سـبقت القـرآن الكريم أصبحت كلهـا فى خبـر كـان • فـلا يعـرف النـاس منهـا سـوى اسمها فقـط • وكأنمـا هى كمـا يقـول القائلون أسـماء لا مسميات لهـا ـ أو لا مضمون لهـا ـ ولا يعتقـد أحـد أن تلك التى يذكرونها فى اليهـودية أو النصرانية هى تلك التى أنزلها الله على مـوسى وعيسى • وربمـا كـان هـذا الاعتقاد راسـخاً فى أذهـان اليهـود والنصارى أنفسهم ، ولـولا أن القـرآن جـاء فيـه كلمـة تـوراة مـوسى وانجيـل عيسى ماكنـا نحـن المسلمين نعـرف عنهمـا شـيئاً • وبخاصة بعـد هـذا الذى عرفنـاه من القائمين عليهمـا ، أو الحافظين لهمـا • من التحريف والتبديل ، والنسـخ والمسـخ ، « وقـالت اليهـود **من التحريف والتبديل ، والنسـخ والمسـخ ، « وقـالت اليهـود ليسـت النصارى على شىء ، وقـالت النصـارى ليسـت اليهـود** على شىء » (١) • والتاريخ يدلنـا دلالة لاشـك فيهـا أن اليهودية **على شىء » (١) • والتاريخ يدلنـا دلالة لاشـك فيهـا أن اليهودية**

---

١ ـ سـورة البقـرة آيـة : ١١٣ •

ذهبت بذهاب موسى ، وأن النصرانية كذلك ذهبت بذهاب عيسى . وأن حواريه اضطهدوا بعد موته ولم يجرؤا على إعلان تعاليمه ، وإظهار كتابه ، وأن فترة طويلة تناهز قرناً كاملا طمست على آثارهم ، وغطت على أخبارهم ، وأن الذين تحدثوا عن المسيحية . أو زعموا وجود الإنجيل كانوا يعلنون هذا الزعم بعد مضى هذا القرن وهذا هو السر فى نسبته الى الأشخاص ــ برنابا .. متى .. لوقا ــ وكل واحد من هؤلاء الأشخاص لا يتلاقى كتابه مع كتاب صاحبه وهؤلاء قد نقلوه الى العربية عن السريانية أو العبرية ــ كما يقولون ــ والمشكل الذى لا يجد حلا عند أهل الرأى والنظر هو وجود هذا الأصل العبرى أو السريانى الذى أخذ عنه الذين نقلوا هذا الكتاب أو ذاك الى العربية .. ولا يستطيع أحد أن يدعى وجود الأصل ولو فى المتاحف ، وهذه واحدة .. أما الثانية فهى الضمانات التى تصون هذين الكتابين ــ التوراة والإنجيل ــ من الضياع ، وتحفظهما من العبث ، وتحول بينهما وبين الأيدى الحمقاء التى تنتهى بهما الى هذه النهاية ، حتى لقد صار فى ذمة التاريخ لا أكثر ولا أقل ، شأنهما فى ذلك شأن زابور داود وصحف إبراهيم وموسى ، وكأن الله سبحانه وتعالى لم يجعل لهما من الحصانة ما يضمن لهما البقاء ، إلا لأنه لم يرد لهما

هـذا البقـاء ، وبقـاء الكتاب هـن ببقـاء مهمتـه ، واستمرار دعوته ، ولا يزعـم أحـد بقـاء دعـوة موسى أو دعـوة عيسى . ليبقى كتـاب هـذا أو هـذا ، ومحمـد ﷺ كمـا يقـول القـرآن الكريم على لسـان رب العـزة : « **وما أرسلناك إلا كافـة للنـاس بشـيرا ونذيـرا** »(٢) . كـان كتـابه ناسـخا لـكل كتـاب تقـدمه ، كمـا كـان هـو ماثـلا للفـراغ الذى تركـه كـل من تقـدمه ، وهى قضـية يؤيدها العقـل والمنطق . وتؤازرها الحكمة والرأى . ولا نـود أن نجعلها مجـال مناقشة ، إنمـا الذى يلفت النظـر ، أو يثـير الدهش ، أن القـرآن وهـو كتـاب سـماوى كالتـوراة والإنجيـل والزبـور وصحف إبراهيم وموسى والصحف أو الكتب التى نـزل بهـا جبريل على هـؤلاء الأنبيـاء والرسـل لتـكون مصـدر دعوتهم ، أو يتبـوع شريعتهم ، تصـير هـكذا أضـيع من الأيتـام على مـائدة اللئـام ، فى حيـن أن القـرآن كـان خـالدا خـلود الدهـر ، صـامدا صـمود الجبـال ، مدويا دوى الأذان ، لا تستطيع الحوادث أن تذهب بـه ، ولا الأعاصير أن تطمسـه ، ولا الحـروب أن تهـزمه ، ولا الجبروت أن يذلـه ،

---

٢ ـ سـورة الحـج آيـة :

ولا السلطان أن يقهره ، ولا العداوة أن تسكت صوته ...

ونحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى تحدى العرب به . وهو لم يتحداهم من فراغ ، وإنما تحداهم بأمر كانوا يألفونه ، ومعنى كانوا يعرفونه ، وشيء ظهر حذقهم فيه ، وإتقانهم له . وتمكنهم منه . ورأس مالهم كان هو اللسان والبيان ، والفصاحة والبلاغة ، وأسواقهم التى كانوا يترقبونها ويسارعون إليها ، لم تكن بضاعتهم فيها إلا القول الجزل ، والمنطق الفصل ، والبلاغة الرائعة . هم أمة لسان ما فى ذلك شك . ولو استطاعوا أن يعارضوه بقول يعلو عليه ، ويطمس معالمه ، ويصرف الناس عنه . ما ترددوا فى ذلك أو سكتوا .. إلا أن الذى أجمع عليه التاريخ ، وآمن الناس به ، أنهم أخذوا به ، واشرأبوا إليه ، ووقفوا منه موقف المهزوم الذى ألقى سلاحه ثم لم يسعه إلا أن يفر من المعركة ، أو يستسلم لخصمه ، وقد صح أن كثيرا منهم تضاءل له ، وتأثر به ، ولم يستطع أن ينال منه ، أو يرد تياره الجارف ، وعمر بن الخطاب على صلفه وعنفه وعناده وكبريائه ، وحربه للاسلام حينما كان فى صفوف الكفر ، لم يلبث وقد ذهب الى أخته هى وزوجها ليؤدبهما على تركهما لدين الأشياخ أن ذهب طيشه ، وسكن جأشه ، ولان شامسه ، وشرح الله صدره للاسلام حينما سمع من

سورة طه : « إننى أنا الله لا إله الا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى » (٣) . وهكذا كان غيره من مشركى مكة يأخذهم بيانه ، ويسحرهم معناه ، ويطغى عليهم سلطانه . فلا يتحدثون عنه إلا حديث المعجب به ، المكبر له ، المثنى عليه .

وقد صح أن جماعة كان على رأسهم أبو سفيان بن حرب زعيم كفار مكة تواصوا ألا يحضروا مجلس محمد ﷺ الذى كان يلتقى بإخوانه فيه ليسمعهم القرآن حتى لا يميلوا الى دعوته ، أو يفتنوا بما يتلوه هنالك من كتاب الله الذى لابد أن يعمل عمله فيهم من فصاحة ألفاظه ، وروعة معانيه ، وبلاغة أسلوبه ، وسحر بيانه ، إلا أنهم كانوا يخبسون بهذا العهد ويذهب كل واحد منهم خلسة عن صاحبه ، وخفية عن زملائه ، ليأخذ بقسط وافر من هذا الغذاء الشهى ، والطعام الهنى ، والزاد الحلو ، والثروة النادرة ، وهنالك يملأ وجدانه منه ، ويروى

---

٣ ـ الآيات : ١٤ ـ ١٥ ـ ١٦ .

ظمأه إليه ، وشغفه به ، ثم يعود وقد شفى غليله ، وداوى عليله ، وأرضى خاطره ، فإن التقى به أحد ممن ارتبطوا معه بهذا العهد ، وعاتبه أو لامه ، كان عذره أنه ذهب ليراقب من عسى أن تحدثه نفسه بنقض العهد .. وكان الوليد بن المغيرة ذا دهاء وعقل ، ورأى وفكر ، وحكمة ونظر ، وبيان ومنطق ، وفصاحة وبلاغة ، وحنكة وسياسة ، وبصر بتصريف الكلام ، وميزان القول ، فطلب إليه قومه أن يصارحهم بكلمة الفصل فى هذا الذى يزعم محمد أنه ينزل عليه من السماء من عند الله ، فلما أمعن النظر فيه والإصغاء إليه ، والفهم له ، عاد ليقول لهم إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وانه يعلو ولا يعلى عليه ، وما يقول هذا بشر ، فثارت ثائرتهم ، وحاصوا حيصة حمر الوحش ، وظنوا أن هذا القول لو ذاع بين أهل مكة لجعلهم يسارعون الى الإيمان بمحمد .. وهنالك توسلوا إليه أن يقول كلمة ينال بها دن محمد ومن كتابه ، فقال إنه سحر يفرق بين الرجل وبنيه ، والأخ وأخيه ، وهنالك طاروا فرحا بقوله **ولكن الله أنزل فيه : « ذرنى ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا ثم يطمع**

أن أزيد كلا إنه كان لآياتنا عنيداً سأرهقه صعوداً إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر »(٤) وتذكر كتب السير كذلك أن أبا بكر رضى الله عنه كان يقرأ القرآن وهو جالس فى بيته فيلتف عليه الناس . ولما رأت قريش أن ذلك قد يبلبل عقول رجالها ونسائها وصبيانها ثم ينتهى بهم الى الدخول فى دين محمد ، والغض من دينها والانصراف عنه . حملته حملا على أن يترك مكة ، حتى لا تفاجأ منه بعد ذلك بما لم يدر فى خلدهما . وهنالك خرج أبو بكر من مكة إلا أن صديقه ابن الدغنة اعترض طريقه ورده عن الهجرة قائلا له « مثلك لا يخرج ولا يخرج » وقد طاف به على مجلس أهل مكة جميعاً ليعلمهم أنه فى جواره ، وأنه سيقرأ القرآن فى داخل بيته حيث لا يسمعه أحد . وما كان يدرى أنهم سيقتحمون عليه هذا البيت ليستمعوا الى ما يقرؤه وأن الشكوى منه ستظل على ماهى عليه ، وأن هذا الجوار الذى ظفر به من ابن الدغنة سيبطل اليوم أو غداً .. ونحن إنما نسوق

---

٤ — سورة المدثر الآيات : من ١١ — ٢٤ .

مثل هذه الأخبار لنلفت الأنظار الى أن القرآن منذ أول يوم سرى الى الأذهان نبأ بلاغته النادرة ، وفصاحته الظاهرة ، وخروجه عن طوق البشر ، وتجاوزه لقدرتهم المحدودة ، وتفكيرهم الهزيل ، وعقولهم القاصرة ، على الرغم من أنهم حذقوا البيان • وأجادوا صنوف القول ، فإنهم دهشوا لوقوفهم هذا الموقف من كلام هو من جنس كلامهم ، وعلى نسق نظمهم ، وطريقة تأليفهم ، ولكن بينهم وبينه مسافة لا يمكن طيها ، ولا يستطاع قطعها ، ولا يتأتى لحيلهم أن تتغلب عليها ، أو تنال منها أو تقهرها •

وأنها ستظل هكذا ، وسيظلون وأقصى جهودهم أن يدركوا أنها بعيدة ، وأن هذه الفجوة التى تفصل ما بينهم وبينها ستظل على ماهى عليه معجزة الزمن ، وعجيبة الأيام والليالى ، لتدل على قدرة الله ، وفرق ما بين الخالق والمخلوق • وهذا هو الذى اصطلح علماء البيان على تسميته بالإعجاز فى كلام الله الذى ليس كمثله شىء ••• فكلام الله جل وعلا وهو فى هذه القمة من الروعة ، وذلك السمو من الإجادة ، وتلك المكانة من الفصاحة ، تتعاقب عليه الأجيال ، وتتنافس فيه الأبطال ، ثم لا يسعها إلا أن تؤمن أنه فوق مستوى الأحلام ، ومسافات الأوهام ، ولكن هذا الإعجاز

الذى تضمنه ، وكان بمثابة الحصانة له من الابتذال ، والصيانة له من الاختلال ، والحفظ له من العبث ، والرعاية له من الضياع ، والذود عنه من أن يتطاول عليه أحمق ، أو أن ينال منه جاهل . ما حقيقته التى جعلته هكذا فى سماء ما طاولتها سماء ... والحق أن الكلام على هذا الجانب من كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد (٥) . فياض المعين ، واسع الأفياء ، متشعب الجوانب ، وقد جعله علماء الكلام مادة خصبة فى الدلالة على نبوة رسول الله ﷺ ، وبرهاناً صادقاً على اصطفاء الله له ، وتأييده إياه ، ورضاه عنه ، إلا أنهم أكثروا فى هذه الدعوى فحملوها ما تطيق وما لا تطيق ، ومن كل ماهو داخل فى نطاق العقل ، أو خارج عنه ، واعتمدوا فى كثير من الأحوال على مالا يقبله الذوق . فتارة يجعلون من إعجازه إخباره عن الأمور المغيبة ، وحديثه عن الأشياء التى ينطوى عليها المستقبل البعيد ، أو الزمن الآتى ، وهى وإن كانت مسلمة عند المؤمن ، مقبولة عند المسلم ، إلا أن الجاحد لهذا الدين

---

٥ ـ سورة فصلت آية : ٤٢ .

قد يتهم مثل هذه الناحية من الإعجاز بأنها تشبه الشعوذة ، ولذلك فإن فحول العلماء الذين كتبوا فى الإعجاز تجنبوا الخوض فيها ، أو الحديث عنها ، ولم يعرضوا لها إلا على أنها بعض الأقوال المحكية ، ويشبهها الى حد ما فى البعد عن الصميم ، والخلو من المنطق السديد ، والمغالاة فى عامية التفكر ، القول بالصرفة الذى يعنون به أن الله صرف العرب عن معارضته والاتيان بمثله ، فى فحولة بيانه ، وجزالة تراكيبه ، وروعة أسلوبه ، ودقة نظمه ، وقوة أسره ، وإشراق ديباجته ، مع قدرتهم على المعارضة ، وكفاحهم للتحدى ، واستعدادهم للرد ، وتأهبهم للحرب ، وهو مذهب يقوم على تجريد الخصم من سلاح الميدان ، وعدة المعركة ، وقوة الدفاع ، ولا يعاب عليه حينئذ أن تلحق به هزيمة ، أو يصيبه تقهقر ، لأن هذه كلها خارجة عن طوقه ، ومتجاوزة لاحتماله ، أو داخلة فيما يقول عنه علماء أصول الفقه « التكليف بما لا يطاق » — أو التكليف بالمحال — وهو غير جائز شرعاً ، إذ أنه كما جاء فى القرآن الكريم : **« لا يكلف الله نفساً إلا**

وسعها » (٦) وإن كانوا ينسبون هذا القول الى النظام زعيم المعتزلة ، وهو من الدعاوى التى لا يقبلها العقل ، ولا يؤمن بها أهل الرأى ، وبخاصة إذا لاحظنا أن النظام وإخوانه من المعتزلة كانوا يحكمون المنطق ، ويستخدمون الحجة والبرهان ، وما كان يظن أن ينسب إليهم المؤرخون هذا المذهب التافه ، والرأى الباطل ، اللهم إلا قصدا للتشنيع عليهم ، أو الزراية بهم ، ليظن الناس بهم الظنون الآثمة .

---

٦ ـ سورة البقرة آية : ٢٨٦ ، وهى آخر آى السورة الكريمة .

المبحث الثانى

القول بالصرفة فى ثنايا الأقوال المذكورة عن إعجاز القرآن الكريم يشبه الى حد ما مذهب هؤلاء الذين يقولون — فى علم الكلام — من كسب العبد وهو فعله الاختيارى إنه فيه مختار ظاهرا • مجبور باطنا • وذلك هو رأى أهل السنة الذى التجأوا إليه ليتفادوا رأى الجبرية القائلين بأنه مجبور لأنه مسخر لإرادة القضاء والقدر التى هى نافذة لا محالة • وكل مافى الكون مستجيب لها رغم أنفه • أما المعتزلة — أصحاب النظام — فانهم يتوسطون فى الرأى بين أهل السنة والجبرية • ولعل قائل هذين البيتين يشنع على أهل السنة والجبرية معا من أصحاب مذهبهم :

ما حيلة العبد والأقدار جارية
بين اختيار وجبر أيها الرائى
ألقاه فى اليم مكتوفا وقال له
إياك إياك أن تبتل بالماء

وما أدرى كيف يقبلون — فى إعجاز القرآن — القول

بالصرفة هذا اللهم إلا أن تكون لهم فيه فلسفة تعبر عن وجهة نظرهم نحن لا نعلمها . وعلى كل حال فقد كان هذا الرأى — القول بالصرفة من الآراء التى لم ترق فى نظر كثير من الناس . ومن المحدثين الذين تعرضوا لهذا الرأى بالتفنيد المرحوم الشيخ محمد أبو زهرة . وفى كتابه الذى جعل عنوانه « القرآن » يقول : « عرف العرب أنهم عجزوا عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن . وعللوا عجزهم بما استرعاهم فيه من حلاوة اللفظ : وطلاوة المعنى . وجمال التركيب . وعمق ما اشتمل عليه وهذا أمر ظاهر . ولكن الفلسفة التى تسيطر على العقول عند بعض الناس تجعلهم يتجهون الى كل ما يرونه جديدا سواء أكان متصلا بالحق المجرد ، أم لم يكن متصلا وسواء كذلك أكان متفقا مع الإيمان والواقع . أم لم يكن كذلك . والمتفلسفون ربما اتجهوا الى الفكرة لا لأصالتها ، ولكن لغرابتها ، ولا لأنها لابد منها لإحقاق الحق وإبطال الباطل ، ولكن للترف العقلى ، لا يفرقون بين أمر يتصل بالإيمان ، أو لا صلة له به . وإن بعض المتفلسفين من علماء المسلمين قد اطلعوا على أقوال براهمة الهنود فى كتابهم « الفيدا » وهو يشتمل على مجموعة من الأشعار ليس فى

كلام الناس ما يماثلها فى زعمهم . ويقول جمهور علمائهم إن البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثلها لأن براهما ـ الإله ـ قد صرفهم عن ذلك . وعندما دخلت الأفكار الهندية فى عهد أبى جعفر المنصور ومن والاه من خلفاء بنى العباس الدولة ، تلقف الذين يحبون كل وافد من الأفكار أمثال هذه الأقوال. وطبقوها على الكلام عن القرآن ، فقال قائلهم إن العرب إذ عجزوا عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن . ما كان عجزهم لأمر ذاتى ، وإنما كان هذا العجز لأن الله صرفهم عنه . ورواج هذه الفكرة يؤدى الى أمرين اثنين .. أولهما أن القرآن الكريم ليس فى درجة من البلاغة الفصاحة تمنع محاكاته . ثانيهما أن المعجز ليس من صفات القرآن الذاتية .. وإن القول بالصرفة نبت أول ما نبت فى أروقة الفلسفة الكلامية . قاله شيخ من شيوخهم هو النظام . وهو أول من جاهر به وأعلنه ودعا إليه ، وكان ذا بيان وحجة وبرهان . ولقد نقده تلميذه الجاحظ . وكان الجاحظ بهذا الرد أول من كتب فى إعجاز القرآن من الناحية البيانية ، وإننا نرى أنه بعد رأى النظام هذا صارت فكرة الإعجاز بالصرفة مجال اختلاف بين العلماء . وقد آن لنا أن نبين بطلان هذه الفكرة من أساسها ، وأن دلائل البطلان قائمة

ثابتة مأخوذة من الوقائع التاريخية . والموازنات الحقيقية الثابتة..
منها أنهم عندما تلقوا القرآن راعهم بيانه ، وقالوا ما رأينا
مثله شعرا ولا نثرا ، فكان ذلك العجز لأمر ذاتى له ،
لا لشىء خارج عنه . ولو كانوا قادرين لكان من كلامهم
قبل نزول القرآن عليهم ما يكون مماثلا له فى نسقه
ونسجه ، وله مثل رنينه وصوره البيانية . ولكن المتتبع
لمأثوراتهم فى الجاهلية والإسلام لا يجد فيها ما يدانى القرآن
فى ألفاظه ومعانيه وصوره البيانية .. وإننا لو قلنا إن
الذى منع العرب من الإتيان بمثله هو الصرفة ما كان
القرآن معجزا ، وإنما المعجز لهم أمر آخر هو الله
لا القرآن . والقول بالصرفة ينفى عنه خواص الإعجاز ،
وقد كانت معجزات الأنبياء السابقين خارجة عن طوق
البشر ، لا يستطيعون أن يأتوا بمثلها ، ولم يكن ذلك بصرف
الناس عنها ، فمعجزة العصا التى كانت لموسى لم تكن
بالصرفة ، فلماذا لم تكن معجزة محمد مثل سائر أنواع
المعجزات وهى أجل وأعظم .. وإن الله سبحانه وتعالى قد
وصف القرآن بأوصاف ذاتية تجعله فى منزلة لا تصل
إليه بها معجزات أخرى ، وكل هذا يوجب أن يكون
إعجازه ذاتيا ، ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو

قطعت بـه الأرض أو كلم بـه الموتى بـل لله الأمـر جميعا »(١) وهـكذا نـرى هـذا العـالم الجليـل يزيـل هـذه الشـبهة • ويفنـد هـذا الرأى • بمـا لا يـدع بعـده مجـالا لقـائل •

أمـا الراغب الأصفهانى فـإنه يـرى أن الإعجـاز الحاصـل فى القـرآن لا يعـود الى اللفـظ ولا الى المعنى • لأن ألفـاظه هى ألفـاظ العـرب • فـلم يكن للقرآن ألفـاظ خاصـة ، وإنمـا ألفـاظه هى ألفاظهم فـلم تكن هنـالك كلمـة أجنبيـة ولا كلمـة غـير عربية • كـذلك المعانى كانت فى الكتب السماوية الأخرى •• والإعجـاز عنـده فى النظـم • وكـأنه كـان يتمثـل مذهـب عبد القاهـر الجرجانى فى البلاغـة إذ يـرى أنهـا توخى معـانى النحـو • والراغب الأصفهانى كـان ممـن يقولون بالقول بالصرفة — لكنـه وجهـه توجيهـا آخـر ، وجعـله أقـرب الى أن يكون معقـولا • يقـول « إن الإعجـاز قـد ذكـر فى القـرآن على وجهيـن ••• أحدهمـا إعجـاز متعـلق بفصاحته • والثـانى بصـرف النظـر عن معارضته ••• فأمـا الإعجاز المتعلق بالفصاحة فليس يتعـلق ذلك بعنصـره الذى هـو اللفـظ والمعنى ، وذاك

---

١ — سورة الرعد آية : ٣١ •

٢ — سـورة الزمـر آيـة : ٨ •

أن ألفاظه ألفاظهم . ولذلك قال تعالى : « **قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون** » وقال « **ألم ذلك الكتاب** » (٣) تنبيها على أن ذلك الكتاب مركب من هذه الحروف التى هى مادة الكلام . ولا يتعلق بمعانيه ، فإن كثيرا منها موجود فى كتب المتقدمين ، ولذلك قال تعالى : « **وإنه لفى زبر الأولين** » (٤) وقال « **أولم تأتهم بينة ماف الصحف الأولى** » (٥) وماهو بمعجز من جهة المعنى كالإخبار بالغيب فإعجازه ليس يرجع الى القرآن بما هو به كان قرآنا . بل لكونه بالغيب ، وذلك سواء كونه بهذا النظم أو بغيره . وسواء أكان بالفارسية أو العربية . أو بلغة أخرى . أو بإشارة أو بعبارة . ولكنه بالنظم المخصوص صار القرآن قرآنا . كما أنه بالنظم الخصوص صار الشعر شعرا . أو الخطبة خطبة . فالنظم صورة القرآن . واللفظ والمعنى عنصره . وباختلاف الصورة يختلف حكم الشيء واسمه ، لا بعنصره . كالخاتم والقرط والخلخال اختلفت أحكامها وأسماؤها باختلاف صورها . وعنصرها واحد وهو الذهب أو الفضة .. وإذا ثبت هذا ثبت أن الإعجاز المختص بالقرآن متعلق بالنظم

---

٣ — سورة البقرة آية : ٢ .
٤ — سورة الشعراء آية : ١٩٦ .
٥ — سورة طه آية : ١٣٣ .

المخصوص ... ومن قرع سمعه فصل بينه وبين سائر أنواع النظم الأخرى ، ولهذا قال تعالى : « **وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه** »(٦) . تنبيها على أن تأليفه لم يكن على هيأة نظم ما يتعاطاه البشر فيمكن أن يزاد فيه كحال الكتب الأخرى ... وأما الإعجاز المتعلق بصرف الناس عن معارضته فظاهر ، وذلك أنه ما من صناعة محمودة كانت أو مذمومة إلا وبينها وبين الأقوام مناسبات خفية ، واتفاقات إلهية ، بدلالة أن الواحد يؤثر حرفة بعينها على أخرى ينشرح صدره لها ، وتطيعه قواه فى مزاولتها ، فيقبل عليها باتساع قلب ، وانشراح صدر ، وقد دل على ذلك قوله تعالى : « **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا** »(٧) وقد دعا الله جماعتهم الى معارضته أو التصدى وقد دعا الله جماعتهم الى معارضته أو التصدى له ، وحينئذ لم يجدوا من أنفسهم الميل الى ذلك ، أو الإقبال عليه ، وأحسوا أن صارفاً إلهياً يصرفهم عن ذلك » ويظهر من هذا الكلام أن الراغب الأصفهانى كان فهمه للقول بالصرفة على خلاف ما فهم غيره ، وعلى هذا فإننا نتقبل القول بالصرفة

---

٦ — سورة فصلت الآيتان : ٤١ — ٤٢ .
٧ — سورة .... آية :

بهـذا المعنى وإن كـان على هـذا الذى نقلنـاه لا يخـدم قضية الإعجـاز ... ويظهـر من الدراسـة لموضوع إعجـاز القـرآن ، أن كلمـة إعجـاز • وكـون القرآن معجـزاً للبشـر • من الأمور التى أحدثهـا اختـلاط العـرب بالأجنـاس الأخـرى من النـاس الذين كـان من دواعى حقدهم عليهم • وكراهيتهم لهـم • الطعـن على أمجـادهم • والتهـوين من شـأن مفاخرهم • والغـض من عظائمهـم • والقـرآن كـان من غـير شـك أحـد تلك الدعـائم التى قـام عليهـا مجـد العـرب • وعـادت بسببه عليهـم من المـزايا ما لـم يكن لسواهم ، لأنـه جـاء إليهـم بلغتهـم ؛ ونـزل عليهـم فى أرضـهم • وكـان الذى يدعـو بـه رجـل منهـم • ولهـذا فإننـا نـرى أن فتنـة الطعـن عليـه ، والنيـل منـه • والخصـومة لـه • والحـرب الدائرة بخصوصه كـانت مرتبطـة كـل الارتبـاط بتـاريخ الخـلافة العباسية التى قـامت على غـير العـرب من الفـرس ثـم التـرك بعـد ذلك وغيرهـم من الأجنـاس الأخـرى التى كـانت وبالا على البيـان واللسان • وكأنمـا كـان ذلك كلـه امتـداداً للشعوبية التى ابتدعتهـا هـذه الأجنـاس للنيـل من العـرب واقضـاء على أمجادهم وأحسابهم ليعيشوا مـدى الحيـاة فى هـوان الذليـل • واستكانة الضعيف • وذلـة المحتـاج • وقـد كانت هـذه كلهـا هى المسامير فى نعش الخـلافة الإسلامية ... أمـا قبـل هـذا التاريخ فـإن التطاول

على القرآن أو الغض منه ، لم يتعدى عنت الجاهل . ولجاجة الباطل . وجحود التخلف . وحقد الأحمق ، وتقاليد الوراثة ، ويضاف الى ذلك أن علوم الفلسفة التى زحفت الى الأفكار ، وطفت على العقول — فى القرن الثانى والثالث — وقد صاحبها تسامح المسئولين ، وتغاضى الرؤساء ، كان من أثرها تلك البلبلة التى سرت الى القلوب والأفئدة ، فجعلت الشبه تطغى على الأفكار الى درجة أن يكتبوا فيها الكتب والمؤلفات ، وبخاصة فيما يتصل بكتاب الله من الإيمان به ، التقدير له ، والدفاع عنه ، كما يقول القاضى عبد الجبار الهمدانى من علماء المعتزلة فى عناوين بعض كتبه « تنزيه القرآن عن المطاعن والبهتان » وابن قتيبة « تأويل مشكل القرآن » .. ولهذا فإننا لا نستطيع أن نقول إن حركة التأليف فى الإعجاز أو الحديث عن الاعجاز كانت قديمة ، أو تقدمت تاريخ اختلاط العرب بالفرس . وإنما هى بعض سيئات هذا الاختلاط ، والخلفاء العباسيون الذين أفسحوا صدورهم للفرس ، وتسامحوا معهم ، كانوا السبب المباشر فى فتح هذا الباب على مصراعيه ، ولا يمكن أن يقال إن التصدى للرد على هؤلاء الذين كانوا يطعنون على إعجاز القرآن . أو يتناولونه فى ناحية من نواحى شموخه وعظمته ، كان وقفاً على أولئك الذين دافعوا عنه بعنوان

إعجاز القرآن ، أو نظم القرآن كما فعل الجاحظ والواسطى والرمانى والخطابى والباقلانى وعبد القاهر الجرانى ، فإن المفسرين للقرآن الكريم قد بذلوا جهدا مشكورا حاولوا به أن يسكتوا هذا الصوت المغرض ، وأن يعلنوا أن لهذا الكتاب ذلك الجرس العالى ، والصوت المدوى ، وأن بيانه سيظل على مدى التاريخ بلهم أرباب الأقلام ، وأصحاب صناعة الكلام ، البراعة والفصاحة ، والروعة والسحر ، ومن كتاب البرهان للزركشى ، والإتقان للسيوطى — وهما فى متناول الأيدى — يضع الباحث يده على كثير من أسماء المؤلفين فى هذا الفن . إلا أن الألوان التى ظهرت فى كتابة هؤلاء المؤلفين تكاد تكون متقاربة ، لأنهم يركزون فى حديثهم عن الإعجاز على خطوط تتلاقى فى الرسم ، وتتحد فى القضايا ، وتتفق فى وجهة النظر ، وهذا هو الأستاذ « فتحى رضوان » وهو من المعاصرين .. يقول فى كتاب له بعنوان « آراء حرة » « تكلم الفقهاء والعلماء فى إعجاز

القـرآن ، وبحثوا ما إذا كـان سـر هـذا الإعجاز لفـظ القرآن ونظمـه ومعنـاه ، أو كشـفه من أبنـاء الغيب أو الأستار عمـا تضـمره نفـوس الأعـداء من الأسرار ، وما تطـويه من شرور.. ويقـول السيوطى إنـه لا خـلاف بين العقـلاء فى أن كتـاب الله معجـز لـم يقـدر أحـد على معارضته بعـد تحـديه بذلك فى أكثـر من سـورة ، إذ وقـع بالقـرآن كلـه ، ثم بعشـر سور ، ثـم بواحدة ، ولـم يقنـع الفقهاء بكـل هـذا فأخذوا يسألون ، هـل هـو معجـز بكـل قـدر منـه ، أم إن الإعجـاز متعـلق بكـل القـرآن ، وقـال قـوم إنـه متعـلق بالسـورة طـويلة كـانت أو قصـيرة ، وقيـل إن الإعجـاز يتعلق بقليـل القـرآن أو قصـيره .

[illegible]

المبحث الثالث

والمشتغل بالدراسة لإعجاز القرآن ، وتتبع حركه الاشتغال به ، أو التأليف فيه ، يدرك تمام الإدراك ، أن الغيورين من المسلمين قد أشبعوا هذه الناحية بحثاً ودرساً وتأليفا ، وإن كان بعض المعاصرين قد خرج عن دائرة المعقول — أو الصواب — وهو يعرض علينا ما يسمى بالإعجاز العددى أو العلمى أو ما أشبه ذلك ، حتى كان منهم من وصل به اجتهاده الى أن يقول إن الحروف التى تبتدىء بها السورة تعطى الإعلان — أولا — أنها أكثر دوراناً فى السورة من سواها فمثلا « ألم » تعنى أن هذه الحروف أكثر دوراناً فى السورة . وكذلك « ألمص » وهكذا ... وهو كلام أشبه ما يكون بالتنجيم ، أو علم البازرجة .. وهذا كله إن دل على شىء وإنما يدل على الفوضى التى تعترى الناس حين تسند فيهم الأمور الى غير أربابها . وعلى كل حال فإننا نرحب ترحيباً بالغا بكل ما يكتب فى الإعجاز ، وهو إن لم يضف إلينا فائدة من الفوائد فإنه يعطينا الدليل تلو الدليل على أن حديث القرآن ، والاشتغال به ، أو التفكير فيه ، لا يزال له الاهتمام عند

النـاس .. وقـد أعجبنى من بعض المعاصرين ، وهـو الأديب السـورى المعـاصر « نعيـم حمـصى » هـذا الكتـاب الذى يـؤرخ فيـه للذين تنـاولوا الكتـابة فى الإعجـاز على اختـلاف طبقـاتهم من مفسـرين وكلاميين وبلاغيين وغيرهـم .. وقـد قـدم لـه الأسـتاذ العـلامة « محمـد بهجـة البيطار » وجـاء فى هـذه المقـدمة قـوله « وقـد توالت الأزمنـة والقرآن يتحدى أهلهـا بالإتيـان بقـرآن مثـله فى جملته ، أو بعشـر سـور مضاهيه فى بعض أنـواع إعجـازه ، بـل بسـورة واحدة تماثله بلفظـه ونظمـه وأسلوبه ، وهدايته وتأثـيره وعـلومه ، وقـد تبين بعـد طـول هـذا التحـدى أنـه كتـاب الله المنـزل ، ووحيـه المعجـز .. لـكن ما ألفـه أمـراء البيـان يوقف عـلى مواضـع من حقـائق القـرآن ومجـازه ، ويجـلى للناظر مطالع من إيجـازه واعجازه ، وإن كـان هـذا الوحى المعجـز كالكهرباء وضيائها ، تستنير بنـوره الأبصـار ، ولا تحيـط بكنهـه الأفكار . ويـود كـل باحـث فى أسـرار القـرآن ومقاصده أن لـو جمـع ما دونـه البلغـاء فى كنـه هذا الإعجـاز على تراخى العصـور ، وقـد فعـل ذلك الأسـتاذ نعيـم الحمصى . فلخص ما سـطرته الأقـلام ، ممـا جـاءت بـه القـرائح والأفهـام ، والكتـاب بعـد ذلك كلـه يشـبه أن يكـون كمـا يـدل عليـه عنوانه تأريخا

إذ أنه بعد هذه المقدمة يتحدث تحت عنوان « معنى العجز والإعجاز لغة واصطلاحاً ، وتاريخ استعمال كلمة معجزة وإعجاز .. ويفيض فى ذلك إفاضة تستدعيه أن يجرى مع اللغويين وعلماء الكلام والمفسرين وجماعة ممن تعرضوا لهذه المسائل بالتأليف المستقل . أو فى ثنايا الكلام على بعض المسائل . ويجىء بعد ذلك بعنوان آخر هو « المعركة الفكرية الكلامية بين القرآن والعرب » يؤرخ فيها للصراع الذى كان من العرب للنبى ﷺ بسبب تلك الثورة الاجتماعية والأدبية التى أحدثها القرآن الكريم والتى كان من جرائها نقمتهم عليه ، ومعارضتهم له . ثم هزيمتهم المنكرة ، وخزيهم الأبدى ، وينتقل المؤلف بعد ذلك الى عنوان خاص به وهو « رأيى فى إعجاز القرآن » يقول فيه ..

والذى أراه أنا هو أن القرآن باغتهم بمميزات فيه أدركوا جمالها ، وعجزهم عن مثلها .. ومن المميزات ما يرجع الى أسلوب القرآن الغريب الذى جاء مخالفاً لأساليبهم فى الكلام وهى المميزات الظاهرة الواضحة التى يمكن حدها ، والإشارة إليها ، ومنها ما هو داخلى يدرك بالذوق ويصعب بيانه وتعليله .. فمن هذه المميزات الواضحة الخاصة بأسلوب القرآن افتتاح آياته وسوره مما لا عهد

للعرب به ، كالحروف المتقطعة فى أوائل السور كالمفتاح الموسيقى للآيات التى بعدها ، وتوجيه الخطاب فى مثل « يا أيها الذين آمنوا » أو « يا أيها الإنسان » ومنها انتهاء هذه الآيات بفواصل موسيقية تنتهى بحرف ساكن قبله حرف لين .. ومنها هذا الضرب من الموسيقى الداخلية الناتجة من موسيقى الألفاظ مفردة مركبة بعضها مع بعض .. ومنها هذه المواضع التى تصلح للوقف فى خلال الآيات .. ومنها هذا التقارب فى مقدار الجمل ، والانسجام فيما بين ألفاظها المفردة وتراكيبها ، حتى لكأنها تجرى على وزن خاص ... وأما الشىء الداخلى المعجز فى القرآن ، والذى يدرك بالذوق ، فهو أنه قد حوى صفات الأدب الخالد ومميزاته ، وهذا ما جعل المتأخرين من العرب — ومن تعلموا العربية — يدركون إعجازه ، ويتذوقون جماله ، وجعله هو لا يخلق على التكرار ، ولا يسرع الملل الى قارئه مهما أعاد ... ويحاول الأستاذ نعيم الحمصى بعد ذلك أن يمر بالتاريخ فترة بعد أخرى أو قرناً بعد قرن ليعرض علينا الأحداث والقلاقل التى مرت بالقرآن الكريم من معارضيه والكافرين به ، أو المؤيدين له ، والمؤمنين به ، وأن الأوقات كلها كانت مشحونة بالاشتغال به ، والحديث فيه — تمرداً أو تعبداً — إلا أن ذلك لم يظهر بالشكل

الذى يدعـو الى الانتبـاه إلا فى القـرن الثـانى حيث نسـب الى ابن المقفـع أنـه تطـاول عليـه بالطعـن فى رسـالة ألفهـا وقـد رد عليـه القاسـم بن إبراهيـم الـرازى • ثـم جـاء القـرن الثـالث فـكان من الطاعنين عليـه ابن الراوندى عيسى بن صبيح المـزدار ، وفى القـرن الرابـع كـان المتنبى ، وفى الخامس كـان المعـرى ، ويمضى مع القـرون فيذكـر المؤلفين فى الإعجاز والذين كـان لهـم رأى يعتـد بـه حتى يصـل الى العصـر الحـاضر فيذكـر الامـام محمـد عبـده ، وأمين الخـولى ، والرافعى ، وعبد العليـم الهنـدى ، والزرقـا ، وسـيد قطب ، والكتـاب فى جملتـه تأريـخ لفـكرة إعجـاز القـرآن يسـاعد البـاحث على أن يستعين بالآراء والمؤلفـات والعصـور إذا أراد أن يطمئن الى الحـكم على الفـكرة فى أوقاتهـا المختلفـة ، كيف كانت تعيش فى عقـول النـاس وأفئدتهم ••• ومن المعـلوم أن إعجـاز القرآن يـدور بأخيـلة النـاس فى إطـارين مختلفين ، إطـار العقيـدة وإطـار البـلاغة ، لذلك كـان حديثـه مزيجـا من هـذين معـاً ، وربمـا كـان بعض هـذه الأقـوال أدخـل فى باب العقيـدة منـه فى باب البـلاغة وذلك كالقـول بالصرفة • أو الإخبـار بمـا انقطـع علمنـا عنـه لحـديث عـاد وثمـود وأصحاب الأخدود وأهـل الكهف ، أو الإخبـار بمـا سيكون كغلبة الـروم ، ودخول مكـة عـام الفتـح ، وكـون التشريعات التى تضمنها من صـنع

اللطيف الخبير الذى تناهت حكمته ، وجلت قدرته ، لكن الذى هو من صميم البلاغة ، نظمه البديع ، ونسجه الدقيق ، ورصفه القوى ، وتأليفه البارع ، وأسلوبه الساحر ، وتراكيبه المتينة ، وألفاظه التى تنضح بالسلاسة والعذوبة ، وموسيقاه التى تملأ الخواطر والضمائر ، والقلوب والأفئدة ، وكلمة إعجاز القرآن فى نظر البليغ أو الأديب إنما تعنى الصياغة والتأليف أكثر من أى شىء آخر ، والقرآن الكريم فى تحديه للعرب كان يعنى هذه الناحية لا أكثر ولا أقل ، لأن هذه المسيرة الطويلة فى طلب المعارضة له بالإتيان بمثله أو بعشر سور أو بسورة واحدة إنما ابتدأت عند قولهم : « **لو نشاء لقلنا مثل هذا** »(١) .

فدل ذلك على أن الصراع كان على قول من جنس القول ، وأن الحديث كان عن أمور طوتها القرون ، وغابت فى طوايا الأيام ، أو عن أشياء يضمرها المستقبل ، جلبه النزاع ، وساق إليه الجدل ، وربما كانت دليلا على أن القرآن كلام الله أكثر من أى معنى آخر ، ويبعد كل البعد أن تكون هى موضوع ذلك التحدى ، وإذا كنا قد اتفقنا على أن

---

١ ـ سورة المؤمنون آية :

التحـدى للشخص إنمـا يكون فيمـا ألفـه ، وتعـود أن يمارسه ويقـوم بـه • فـإن الذى تعـوده العـرب ، وألفـوا ممارسته وكـانوا يقومون بـه • هـو اللسن والبيـان ، والتباهى بالفصاحة والبلاغة ، والسـياق فى ميدان القـول الرائع ، والمنطق القـوى ، والحـديث الحـلو • ذلك كـان التحـدى فى هـذا المجـال دون غـيره من المجـالات الأخـرى ••• ولهـذا رأينـا الإمـام عبد القاهـر الجرجانى وهـو سـيد المدافعين عن كتـاب اللـه ، والزائدين عن حياضـه ، يجعـل حديثـه عن البـلاغة العربيـة ، ورسـمه للمعـالم الواضحة لمـا سـماه تـوخى معـانى النحـو الذى هـو النظـم فى نظـره مدخـلا الى أن القـرآن كـان فى مرتبـة من البـلاغة لا يمكن أن يصـل إليهـا الفحـول من أرباب البيـان ، ودهـاتين القـول ، وجهابذة الكـلام ، ثـم جـرى على نهجـه كـل من العلمـاء الذين اشتغلوا بهـذا الفـن ، وكتبـوا فى هـذا العـلم •• وربمـا كـان من البديهى جـدا أن يدرك الإنسان لأول وهـلة عند الممارسة لعـلوم البلاغة ، والفهـم لقوانينها وأصولها • أن النـاس وهـم متفاوتون فى الإدراك ، ومختلفون فى الإحسـاس ، ومتباعدون فى الذوق ، ومتباينون فى المعـرفة ، لا يمـكن أن تكـون درجاتهم فى البيـان متسـاوية ، ولا مراتبهـم فى البـلاغة متحـدة ، وذلك لأن البـلاغة مطابقـة

الكلام لمقتضى الحال ، وذلك يعنى أمرين اثنين كلاهما يحتاج الى مهارة وحذق ، وفهم وعلم ، وبصر ورأى ، وذوق وإدراك . الأول دقة المطابقة . والثانى دقة المعرفة للحال . وهذه الدقة أولا وثانياً لا يمكن أن تكون لإنسان محدود الادراك والفهم . والبصر والرأى ، والذوق والإحساس ، والإحاطة والعلم ، والوجدان والمعرفة ، ومن هنا فهو لا يقف على حقيقتهما كما هى ليؤدى لهما حقهما من الاشتمال على الخصوصيات ، وإنما اللطيف الخبير وحده هو صاحب ذلك كله ، لأنه يعلم السر وأخفى ، ولهذا كان صنعه بديعاً ، وكان خلقه إعجازاً ، وكانت قدرته تحديا . وصدق الله العظيم : « **هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه . بل الظالمون فى ضلال بعيد** » (٢) .

ومن هنا وجب أن يكون الحديث عن الإعجاز من هذا المنطلق لأن هذه الناحية هى التى اهتم بها القرآن الكريم ، واهتم بها العرب وهم يحاولون أن يروضوا أنفسهم على معارضته . ويستعرضوا عضلاتهم للنيل منه ، ويدعوا أنهم يحاكونه فى بيانه ، أو يجارونه فى سحره وأسره ، والنبى

---

٢ — سورة لقمان آية : ١١ .

ﷺ مع ذلك كله يتلو عليهم قوله جل جلاله : « **فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** »(٣) وكأنما كان يطمئن كل الاطمئنان الى أن الهزيمة من نصيبهم ، والخزى هو المآل الذى يترقبهم ، واعتقادنا الذى لا نتخلى عنه . ويقيننا الذى نؤمن به ، أن المفسرين لكتاب الله ، والدارسين لحلاله وحرامه ، وطريقة رسمه وكتابته ، ومعرفة ناسخه ومنسوخه ، وإعراب كلماته ، ودفع الافتراءات التى تختلق عليه ، أو توجه إليه . لا يخدمونه ولا يؤدون له بعض ما يجب ، كما يخدمه ويؤدى له الواجب كله من يبصر الناس بما فيه من بلاغة تتقاصر دونها الأعناق ، أو يضع أيديهم على مواطن الجمال فيه ، ومواضع الحسن منه . وأساليب إبداعه ، وأفانين ابتداعه ، ومتانة تراكيبه ، وحلاوة إيقاعه ، وخلابة تصويره ، وجمال تعبيره ، وروعة جرسه ، وموسيقى ألفاظه ، فإن أساليب البلغاء . وكتابة الأدباء ، وصياغة الدهاقين ، وفصاحة الأساطين ، مهما أخذت من إعجابنا ، وملكت من نفوسنا ، وصنعت فى وجداناتنا وعملت فى انتباهنا ووعينا ، لا تؤثر فى أرواحنا تأثير القرآن

---

٣ ـ سورة البقرة آية : ٢٤ .

الكريم الذى نشعر أن حواسنا الخارجة والباطنة تحتفل به ، وتحن إليه ، وتهش له ، وتقبل عليه ، وتمتزج به . وتعيش معه ، حتى بعد نهاية القراءة وانقطاع التلاوة ، ولا يكاد المسلم يخلو به ، ويمعن النظر فيه ، والمناجاة له ، والتشرف بالمثول بين يديه ، والانقطاع إليه ، وترطيب اللسان بكلماته ، حتى يشعر أنه فى ضيافة ربه ، وحضرة خالقه ، ورحاب مولاه ، وهنالك لا يرى مجداً وراء ماهو فيه ، ولا مكانة أسمى من مكانته ، ولا شرفاً يتطاول الى شرفه ، لأن السعادة التى تغمره ، والارتياح الذى يصادفه والخيال الذى يحلق فيه ، ينقله بحق من ذات الصدع الى ذات الرجع . والسنة بهذا تنفى عن من تطرقوا الى إخباره بالغيب . أو تنبئه بالمستقبل ، أو رسمه بالخطط القودية فى التهذيب والإصلاح ، والتربية والأخلاق . جهدهم المشكور ، فإن هذه كلها تشبه أن تكون من البراهين على كونه من عند الله الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ... والمعنى اللغوى لكلمة إعجاز تفيد ثبوت العجز وعدم القدرة على الفعل حين يراد من الإنسان ، وما ثبت أنهم طلب منهم علم ما لم يعلموا . أو التكهن بما يترقب حصوله ، أو أن يأتوا بتشريع أكمل منه ، ولذلك نرى كل هذه الأقوال فى الإعجاز بعد القول ببلاغته النادرة ، وفصاحته الباهرة من قبيل النافلة الزائدة على الواجب .

المبحث الرابع

حين يكون التحدى قائما على الحجة ، هادفاً الى المنطق ، معتمدا على المألوف المعروف ، لا يعييه أحد ولا ينكره عقل ولا رأى ، ولا ذوق ولا فكره ، أما حين يتحول الى صراع يكون هو الحرب أو ما يشبه الحرب ، فلا يكون إلا عناداً ومكابرة ، إذا أحسنا الظن والتعبير ..

وقد كان تحديه ﷺ للمشركين الذين جابهوه بالإنكار . حين زعموا كل زعم باطل فى هذا الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، خالياً من العنت والمشقة ، لأنه لم يطلب إليهم أن يأتوا بأحسن منه ، والشأن فى المكابر أو المعاند هكذا أن يجىء بالأحسن ليكون له الفلج على خصمه ، أو الغلبة عليه ، أما أن تكون كفته غير راجحة ، وصفقته غير رابحة ، فإن ذلك لا قيمة له ، فيما يعارض فيه ، أو يتقبل من أجله ذلك التحدى الذى يوجهه إليه خصمه ، ومحمد ﷺ لم يطلب الى المشركين أن يجيئوا بأحسن مما جاء به حتى يكون متعنتاً ، فقد قالوا عن

---

١ ـ سورة هود آية : ١٣ .

القرآن أساطير الأولين ، وقالوا مفترى ، فجاراهم فى ذلك . أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ... أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين »(١) وبهذا الأسلوب الذى كانت عليه المحاجة ، وسار على نمطه الحوار ، كان محمد ﷺ مثالا رائعا من الحلم ، ونموذجاً نادراً من السلم ، إلا أن المعارضة حين لا تكون للوصول الى الحق ، وإنما تكون للعناد والمكابرة ، تخرج عن حدود الاعتدال والأدب ، والذوق والأخلاق ، وهنالك لا يكون لها منطق إلا الحرب التى لا يتأبى فيها الخصم من استعمال الأسلحة المختلفة للفتك أو الدمار ... وقد ثبت أنهم بعد ذلك كله تجردوا من ضمائرهم وانسلخوا من أحلامهم ، وأخذوا يفكرون فى قتل رسول الله ﷺ . لا لذنب إلا أن منطقه كان أحكم من منطقهم ، وبيانه غطى على بيانهم ، ولم تكن هذه الخطة غريبة على البشرية . فهكذا تكون عادات الناس فى أخص مزاياهم فأحاط بهم العجز ، وأصابهم الهزال . حين يطيش صوابهم ، ويشتد سفههم ، إذا تحداهم المتحدى ولذلك فإن المتحدثين عن الإعجاز من المتقدمين أو المتأخرين تقوم مؤلفاتهم على الجانب البلاغى ، وتنطوى على السحر

البيـانى ، والموقف الذى وقفتـه الكفـار مـع محمـد ﷺ ، والذى أرادت فيـه أن تلتجىء الى القـوة الغاشمة لـم يسـجل عليهـا الهزيمة فى ميـدان البـلاغة والمنطـق ، والعقـل والفكر ، والبيـان والفصـاحة وكـفى ، إنمـا سـجل عليهـا عـار الأبـد حينمـا تحولت عن ميـدان المعـركة الى ميدان لـم يكن فى صميم الخصـومة ، ولا كـان هنـالك ما يدعـو إليـه ، وهـل يكـون هـؤلاء قـد انتصروا فى المعـركة ، أو كسـبوا القضية ، لـو أنهـم فعـلوا بمحمـد ما أرادوا ، أغـلب الظـن أنهـم هـم لا يقولون ذلك ، ولكن الحقـد الذى لا منطـق لـه يفعـل كـل رذيلة ، ويسـوق الى كـل موبقـة ، وحينئذ تكـون المسألة كمـا يقـول الله سبحانه : « **فإنهـا لا تعمى الأبصـار ولـكن تعمى القـلوب التى فى الصـدر** »(٢) .. والباقلانى يـرى أن هـذه الناحيـة من الإعجـاز لا يفهمهـا إلا من كـان ذا ذوق عـربى ، وسليقة أدبيـة ، وثقـافة دينيـة ، وجـاء فى مقدمة كتـابه « لأن ذلك ممـا لا سـبيل إليـه إلا أن يكـون الناظـر فيمـا نعرض عليـه ممـا قصـدنا اليـه من أهـل صـناعة العربية ، قـد

---

٢ ـ سـورة الرعـد آيـة :

وقف على جملة من محاسن الكلام ومتصرفاته ومذاهبه . وعرف جملة من طرق المتكلمين ، ونظر فى شىء من أصول الدين » .. ثم يقول بعد ذلك فى أثناء الكتاب تحت عنوان « فصل فى كيفية الوقوف على إعجاز القرآن » وكذلك نقول إن من كان من أهل اللسان العربى إلا أنه ليس ببالغ فى الفصاحة الحد الذى يتناهى الى معرفة أسباب الكلام ، ووجوه تصرف اللغة • وما يعدونه فصيحاً بليغا بارعا من غيره كالأعجمى فى أنه لا يمكنه أن يعرف إعجاز القرآن ،، فهل كانوا من هذا النوع الذى تصوره الباقلانى فى أنه كالأعجمى الذى لا يمكنه أن يعرف ، ونود أن نلفت النظر الى أن الذين كتبوا فى الإعجاز غير الباقلانى كانوا كلهم يركزون على الناحية البيانية • والجانب البلاغى ؛ وهذا هو الزمخشرى — صاحب الكشاف فى تفسير القرآن الكريم — يلتزم بهذا المبدأ ، ويكشف عما فى كتاب الله من ملاحة فى المعنى ، والاقة فى المبنى ، وهو يتعرض لآياته يشرحها من ناحية الحسن البلاغى ، والزخرف البيانى وكذلك حذا مثل هذا الحذو عبد القاهر الجرجانى مع الاختلاف كل الاختلاف فى الأسلوب لأن صاحب الكشاف كان فى التفسير العظيم وهو يبين عن المزايا والخصائص كالحسناء وخيالها

فى المرآة .. أما صاحب دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة ، فقد أراد أن يرسم للذوق الأدبى حدوده ، وللأسلوب البيانى قيوده ، ويرينا من البستان رياحينه وياسمينه ، ثم يتركنا بعد هذا وقد اكتملت فينا الملكة ، ونضج الوعى ، ونما الذوق ، وقويت القدرة على النقد الذى يجعلنا نميز بين الحسن والقبيح ، ونقارن بين عجز الإنسان ، وإبداع الرحمن ، وصنع الناس ، وحكمة اللطيف الخبير ، وهى أجدى النواحى ، وأمثل الطرق ، كما حدثنا الرافعى وهو يقول « ما غرط المسلمون فى أدب هذا القرآن إلا منذ فرطوا فى لغته فأصبحوا لا يفقهون كلمه ، ولا يدركون حكمه ».

ولذلك فإننا ننادى بضرورة صون لغة القرآن والاهتمام بها ، والحفاظ عليها ، والدعوة الى جعلها لغة المسلمين الذين يريدون أن يتواصوا بالحق ، ويتواصوا بالصبر ، ونعلن أنهم لم يتخلفوا فى الحياة ، ويتأخروا عن الركب ، ويبلغ بهم الضعف درجة أن يعيشوا غرباء فى أوطانهم ، إلا بسبب هذا التفكك بينهم ، والتقاطع الحاصل لهم ، وأنهم لم يفهموا أن دينهم الذى شرع الجماعة فى الصلاة ، ووحد القبلة التى يولون وجوههم إليها ، وجعل الحج فرصة للتعارف ودراسة المشاكل ليتعاونوا

على البـر والتقـوى ، إنمـا فعـل ذلك كلـه من أجـل أن يكون هنـالك ترابط فى البيـان واللسـان والوجـدان والأمـل والألـم والهـدف والغـاية ، ليكونوا بحـق خـير أمـة أخرجت للنـاس ، يمسكون بأيديهم زمـام العمـران ، ومفـاتيح الإصلاح ، وموازين العـدالة ، وتقـاليد الحـكم ، ولا يتـأتى ذلك إلا إذا كـانت الضـاد لغـة تخاطبهم فى الشـرق والغـرب ، والحضر والبادية ، ولكن بعض المسلمين يفهمـون أن كـل دعـوة فيهـا تعـريب أو عربيـة أو عـروبة دعـوة الى الانسلاخ من القوميات التى تنتمى إليهـا هـذه البـلاد كالتركية والهنـدية والأفغانية والماليزية وهكذا وهى إن لـم تكـن عصبية للضـاد فهى دعـوة الى التخـلى عن هـذه القوميـات . ولذلك فإننـا لا نطيـل الحـديث فيهـا ، ونكتفى بدوى هـذه الرغبـة فى الآذان ، ونتـرك لهـم فرصـة التـروى ، ونقـول لهـم لابـد أن تضعوا فى الاعتبار أن العربية لغـة الكتـاب والسـنة لمـن يريـد أن يصـل نفسـه بالكتـاب والسـنة .

ونستطيع وقـد استطردنا تلك الاستطرادات الكثيرة ، وطفنـا هاهنـا وهاهنـا فى حديثنـا عن القـرآن الكـريم وجـوانب الإعجـاز فيـه ، أن نقـول فى ثقـة لا حـد لهـا إن اللـه سبحانه وتعالى قـد أحـاط هـذا الكتـاب بسياج من الصـون ،

وقدر كبير من المناعة ، وقسط وافر من الرعاية . ردت فيه كيد الحاقدين ، وعدوان الجاهلين ، وزيف المبطلين ، وجعلته يصمد للخطوب التى كانت تقارعه ، والعواطف التى كانت تهب عليه ، وذلك بسبب ما كان فى بنائه الشامخ من تماسك على مثال لا يعرفه الناس فى هندسة البناء ، وترابط الأشياء ، وهو ذلك النظم البديع الذى أودعه فى سبكه له ، وتأليفه إياه ، فجاء على مثال من قدرة الله التى أعجزت الخلق ، وأرهقت الناس ، وحيرت ألباب البشرية ، وهذا هو السر فى أنه لا تعصف به الأهواء ، ولا تؤثر فيه الأنواء ، ولا تفرقه الأمواج ، ولا يعفى عليه الزمن ، ولا يطويه التاريخ ، ولا تطحنه الحروب ، ولا تصوره الترجمة ، ومازال الناس على تعاقب الأجيال يدركون أثره البالغ فى تربيته للذوق ، وتهذيبه للشعور ، وإرهافه للحس ، وسموه بالروح ، وكأنما كان له فى ذلك أسلوبه الخاص الذى انفرد به . فما من كاتب تأدب به ، ولا عالم تتلمذ له ، أو فيلسوف نهل منه ، إلا كان له فى هذا طابع خاص يبدو فى حذقه ولباقته ، وظرفه وكياسته ، وحسن تأنيه للأشياء ، وفهمه للمسائل ، وعرضه للحقائق ، ومن خلال حديثه معك ، أو كتابته إليك ، تدرك أنه من هؤلاء الذين انتفعوا به ، وأخذوا منه ، وقد ألف الناس من

الشعراء المفلقين ، أو الخطباء المصاقع ، إذا اشتدت بهم الحال ، أو ضاق عليهم المجال ، أو أحرجتهم الظروف ، عبارات نابية ، أو جملا جافكة ، أو ألفاظ خارجة ، أو أدباً مكشوفا ، وبخاصة حينما يتحدثون عن المرأة ، وهى ذلك المخلوق الذى يصونه أهله عن الغبار ، وله هو فى ذلك المجال الذى لا يجاريه فيه أحد ، واقرأ إن شئت قوله تعالى : « **نساءكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم** »(٣). وتأمل هذا الخطاب الذى يوجهه الى الرجال « نساؤكم حرث لكم » الذى يتيسر به خلال البر .

وعواطف الخير ، ونوازع الاحسان ، وهواتف الحب . وأحاسيس العطف . نحو المرأة وهى الحرث الذى يرجو الرجل منه الغراس الطيب ، والثمرة الحلوة ، والنبات النافع ، والحصاد المرموق والغلة المباركة ، وهو يقصد من سياق هذا الحديث أن ينهاه عن اتيانها اتياناً تتعطل فيه الطاقة ، وتضيع فيه المصلحة ، حين يجافى الطبع ، ويخالف العرف ، ويعاند سنن الكون .

والمقام شائك — كما نرى — يحتاج الى دقة

---

٣ — سورة البقرة آية : ٢٢٣ .

وحـذر ولبـاقة وكياسـة ، وحكمـة وذوق ، والمتحـدث فيـه يخـاطر بموقفـه ، ويقـامر بإقـدامه ، ويخـشى أن يخـونه التعبـير المهـذب ، واللفـظ المـؤدب ، إلا أن القـرآن يمسـه كمـا تمـس الحسـناء بطـرف بنانهـا أوتـار عودهـا لتعزف عليـه أروع الأنغام ، وأعزب الألحـان • فهـو يقول « نساؤكم » بصـيغة الجمـع متفـادياً كلمـة زوجـة أو امـرأة لأن كثـيرا من النـاس يسـتنكف أن يقـول لـه القـائل زوجتـك أو امـرأتك •• وكلمـة حـرث فى الأصـل معناهـا الكسب وجمـع المـال والـزرع ، وإن كـان الكـلام على حـذف مضـاف كان المعنى مكـان الحـرث •• والأرض التى يلقى فيهـا البـذر لابد أن تكـون صالحة للانبـات ، والإنبـات فى الأرض على ما يفهمـه الخبـيرون بالفـلاحة لهـا على شـكل خـاص • وتعهـد بالرى والتسميد كـذلك ، وكـل هـذا تلويح للرجـل أن يأتى زوجتـه من حيث يكـون الولد ، فـلا يأتيهـا من غـير ذلك ، ولا فى زمن الحيـض ، وربمـا كانت كلمـة حـرث هـذه للايحـاء بأن القصد النبيـل من الزواج هـو إنجـاب الأولاد ، الذين هـم امتـداد لعمـر الوالدين ، لاقضـاء الشـهوة •• وهـكذا نراه يرتفـع الى القمـة ، ويسـمو الى الذروة ، ويحـلق فى سـماء لا تطاولهـا سـماء ••• ولـو أننـا رحنـا نتقصى لك أمثلتـه ، ونسوق اليك شواهده ، لطـال بنـا المـدى ، فليكن حديثنـا عنـاوين تذكرها ،

وإجمالا نسوقه ، ورمزا خاطفا نجر خيالك إليه • لتعيش معه برهة من الزمن وهو يحلق بك فى هذا الملكوت حين يقول : « وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون وهو الذى ذراكم فى الأرض وإليه تحشرون وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون بل قالوا مثل ما قال الأولون قالوا أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون • قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون بل آتيناهم بالحق وإنهم الكاذبون ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض • سبحان الله عما يصفون »(٤) • فأنت تراه يضع الكون كله بين يديك • لتنظر مظاهر العظمة فيه ، ودقة الصنع فى جميع نواحيه ، ودلائل القدرة ملاة ، وبرهان الوحدانية يحيط به • فلا يجحد

---

٤ — سورة المؤمنون الآيات : من ٧٨ — ٩١ .

ذلك إلا مكابر • ولا ينكره إلا أحمق ، وهو فى أثناء تلك المسيرة الشاعرية ، الحلوة يتنقل بك من طريق الى طريق ، ومن جو الى جو ، ومن فنن الى فنن ، ومن مجال للابداع الباهر والسلطان القاهر ، والملكوت الواسع ، تحلق فى أنحائه وتعيش فى أجوائه ، الى آخر وآخر حتى إذا ما بهرك ذلك كله ، كان من الضرورى أن تضع يدك على النتيجة الضرورية « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله » ••

فإذا رحنا نفتش عن بعض المعانى التى تناولها القرآن الكريم وجدنا قرآناً عجبا وبياناً معجزاً نجد ذلك فى تناول القرآن الكريم حين يعرض للفظ الجلالة الله والمعانى التى يصور بها حبيبه محمداً ﷺ وكذلك الجنة والنار واليوم الآخر •

وسوف أضع أمام القارىء نموذجاً لواحد من هذه المعانى ألا وهو الجنة وكيف تناول معانيها هذا القرآن العظيم •

المبحث الخامس

الجنة

تحدث القرآن كثيرا عن الجنة وما فيها من النعيم ، الذى ينتظر من آمن وعمل صالحاً ، وعندما أراد أن يقرب الى أذهاننا سعة هذه الجنة وضخامتها ، قال : « **وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين** »(١) ولما كان العرض عادة أضيق من الطول ترك للخيال أمر تصور طول يكون عرضه السموات والأرض ، وقد أعد فى هذه الجنة مساكن وصفها القرآن بأنها طيبة ، تطيب فيها الحياة ، ويسعد فيها المقيم .

عنى القرآن أكثر ما عنى وهو يتحدث عن الجنة بأن الأنهار تجرى من تحتها ، فكثيرا ما تسمع فيه هذا الوصف الذى ورد فى قوله سبحانه : « **أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، ذلك هو الفوز العظيم** »(٢)

---

١ ــ سورة آل عمران آية : ١٣٣ .

٢ ــ سورة الحديد آية :

ولا ريب أن للأنهار منظرا يروق العين ، ويثلج النفس ، ويهيج القلب ، فضلا عن أن الماء يوحى بمعنى الحياة ، والاطمئنان إليها ، وليست هذه الأنهار الجارية مياهاً متدفقة فحسب ، ولكنها أنهار متنوعة بين ماء عذب ، ولبن سائغ ، وخمر شهى ، وعسل صاف ، « مثل الجنة التى وعد المتقون ، فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى » (٣) ، ومن هذه الأنهار يعب الشاربون كما يشاءون ، ولا يكتفى القرآن بذكر هذه لأنهار الجارية فيها ، بل يحدثنا عن العيون المتفجرة فى أرجائها ، ولتفجر العيون فى النفس أثره المبهج السار .

ويعيش أهل الجنة فى جو لا يؤذيه حر الشمس ولا قوة البرد ، « **لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا** » (٤) ولكنها ظل ظليل لا يمحوه وهج الشمس ، وقد أكثر القرآن من الحديث عن ظل الجنة ، فقال مرة : « **وندخلهم ظلا ظليلا** » (٥) ، وقال « **إن المتقين فى جنات**

---

٣ ـ سورة الجن آية : ١٥ .
٤ ـ سورة الانسان آية : ١٣ .
٥ ـ سورة النساء آية : ٥٧ .

وعيــون » (٦) ، وقــال : « أكلهــا دائــم وظلهــا » (٧) ، وقال : « ودانيــة عليهــم ظلالهــا » ، وقــال : « هــم وأزواجهم فى ظــلال ، على الأرائك متكئون » (٨) . والظــل ممــا تجــد النفس عنــده الطمأنينة ، وتشــعر لديــه بالهدوء والغبطــة يلجــأ إليــه الســائر فى حــــر الظهــيرة ، فيجــد راحــة نفســه وهــــدوء قلبــه ، وكــأن القــرآن بهــذا الوصــف يعقــد مباينة تامــة بين النــار الملتهبــة لا يجــد فيهــا الإنســان مــأوى من لظاهــا ، وبين الجنــة ذات الظـــل الــوارف الظليــل .

وأجمــل القــرآن مــرة مافى الجنــة من نعيــم الطعــام والشــراب حيــن قــال : « يطــاف عليهــم بصحاف من ذهــب وأكــواب . وفيهــا ما تشتهيه الأنفس . وتلــذ الأعيــن » (٩) . وخــص القــرآن من بين أنــواع الطعــام ، الفواكه بالحــديث يجمعهــا حينــا ، ويعــدد بعض أنواعهــا حينــا آخــر ، ويتحدث عــن قــرب مجتناهــا ، ودنـــو قطوفهــا ، فقــال مــــرة : « أولئــك لهــــم رزق معــلوم . فواكــه . وهــم مكــرمون ، فى

٦ — ســورة الذاريات آيــة : ١٥ .
٧ — ســورة الرعــد آيــة : ٣٥ .
٨ — ســورة يــس آيــة : ٥٦ .
٩ — ســورة ....

جنـات النعيم »(١٠) وقـال ثانية : « تلك الجنـة التى أورثتموها بمـا كنتـم تعملون ، لـكم فيهـا فواكه كثيرة منها تأكلون »(١١) وقـال أخـرى : « ولمـن خـاف مقـام ربـه جنتـان ، فبـأى آلاء ربكمـا تكذبان ، ذواتـا أفنـان ، فبـأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهمـا من كـل فاكهـة زوجـان ... فيهمـا فاكهـة ونخـل ورمـان »(١٢) و « إن للمتقين لحسـن مـآب ، جنـات عـدن ، مفتحـة لهـم الأبـواب . متكئيـن فيهـا يدعـون فيهـا بفاكهـة كثـيرة وشـراب »(١٣) . « وأصـحاب اليميـن ما أصـحاب اليميـن ، فى سـدر مخضـود ، وطلـح منضود ، وظـل ممـدود ، ومـاء مسكوب ، وفاكهـة كثـيرة ، لا مقطـوعة ولا ممنوعة »(١٤) . و « إن للمتقين مفازا . حدائق وأعنابا »(١٥) .

وأشـار الى اللحـم بعـامة ، ولحـم الطيـور بخاصـة فى موضعين من القـرآن ، ولعـل العنـاية بذكـر الفاكهـة ، مـع أن القـرآن قـد أشـار الى أن فى الجنـة من كـل الثمـرات ،

---

١٠ ـ سـورة الجاثيـة آيـة :
١١ ـ سـورة الحجـر آيـة :
١٢ ـ سـورة الرحمن الآيات : من ٤٦ ـ ٥٣ .
١٣ ـ سـورة ص الآيات : من ٤٩ ـ ٥١ .
١٤ ـ سـورة الواقعـة الآيات : من ٢٧ ـ ٣٣ .
١٥ ـ سـورة النبـا الآيتـان : ٣١ ، ٣٢ .

وبذكر اللحم — تشير الى ما فيه أهل الجنة من الترف والنعيم ، فالمعتاد أن هذين النوعين من الطعام يسعد بزيارتهما الأغنياء المترفون .

وخص القرآن من بين أنواع الشراب الماء واللبن والخمر والعسل ، وتحدث كثيرا عن خمر الجنة وما تمتاز به من خمر هذه الحياة ، فهى خمر خالصة للذة لا تعتدى على العقل ، ولا تنتهب قواه ، « **يطاف عليهم بكأس من معين ، بيضاء لذة للشاربين ، لا فيها غول ، ولا هم عنها ينزفون** » (١٦) ، خمر يحتفظ فيها الشارب بخير ما أعطى من النعم وهو عقله ، وإذا كانت الخمر يجمل شربها من يد ساق جميل ، فقد أعد فى الجنة هلاء السقاه « **ويطوف عليهم غلمان لهم ، كأنهم لؤلؤ مكنون** » (١٧) . هذا الى ألوان أخرى من الشراب خصت بها الجنة هذا وماف الجنة من ألوان الطعام والشراب دائم لا نفاذ له ، « **إن هذا رزقنا ، ماله من نفاذ** » .

ويقدم الطعام والشراب فى صحاف وأكواب صيغت من

---

١٦ — سورة الصافات الآيات : من ٤٥ — ٤٧ .

١٧ — سورة الطور آية : ٢٤ .

الذهب والفضة : « ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قوارير ، قوارير من فضة قدروها تقديرا » .

أما ملابسهم فمن الحرير والإستبرق (١٨) ، **« يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق » ، ويجلسون متقابلين « متكئين على فرش بطائنها من استبرق » (١٩) ، و « على سرر موضونة ، متكئين عليها متقابلين » (٢٠)** يتحدثون ، وقد بدت على وجوههم البهجة والسرور **« تعرف فى وجوههم نضرة النعيم » (٢١)** ، وقد اطمأنت نفوسهم الى هذا النعيم المقيم ، وملأ الرضا نفوسهم فلا غل فيها ولا حفيظة ، **« ونزعنا ما فى صدورهم من غل ، إخوانا على سرر متقابلين » (٢٢) ، « تجرى من تحتهم الأنهار . وقالوا : الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، لقد جاءت رسل ربنا بالحق » (٢٣)**

---

١٨ ـ سورة الكهف آية : ٣١ .
١٩ ـ سورة الرحمن آية : ٥٤ .
٢٠ ـ سورة الواقعة الآيتان : ١٥ ، ١٦ .
٢١ ـ سورة .....
٢٢ ـ سورة .....
٢٣ ـ سورة .....

وهـذا مجلس من مجـالس أهـل الجنة يصـفه القرآن فى قوله :

« وجـوه يومئذ ناعمـة • لسعيها راضـية • فى جنـة عاليـة • لا تسـمع فيهـا لاغيـة • فيهـا عيـن جـارية • فيهـا سـرر مرفوعـة • وأكـواب موضـوعة • ونمـارق مصـفوفة • وزرابى مبثـوثة » (٢٤) ويصـف مجلسـاً آخـر من مجالسها قـائلا :

« والسابقون السابقون • أولئك المقـربون • فى جنـات النعيـم • ثلـة من الأولين • وقليـل من الآخـرين • على سـرر موضـونة • متكئين عليهـا متقـابلين يطـوف عليهـم ولدان مخلدون بأكـواب وأباريق وكـأس من معيـن • لا يصدعون عنهـا ولا ينزفـون • وفاكهـة ممـا يتخـيرون • ولحـم طـير ممـا يشتهون • وحـور عيـن كأمثـال اللؤلؤ المكنون • جـزاء بمـا كـانوا يعمـلون • لا يسمعون فيهـا لغـوا ولا تأثيما • إلا قليلا : سلاما سلاما » (٢٥) قـد امتـلأت نفوسهم بالغبطـة لرضـا الله عنهـم ورضاهم عن نتيجـة أعمالهم ، « رضى الله عنهـم • ورضـوا عنـه » (٢٦) • وتدور بينهـم أطيب الأحاديث وأسعدها ، وهاهم أولاء قـد ضمهم مجلس • « فأقبـل بعضهم على بعض يتساءلون • قـال قائل منهم :

---

٢٤ ــ سـورة الغاشية الآيات : من ٨ ــ ١٦ .

٢٥ ــ سـورة الواقعـة الآيات : من ١٠ ــ ٢٦ .

٢٦ ــ سـورة البينـة آيـة : ٨ .

إنى كـان لى قـرين ، يقـول : أئنـك لمـن المصدقين ، أئـذا متنا وكنـا ترابا وعظاما ، أئنـا لمدينون ؟ قـال هـل أنتـم مطلعون ؟ فاطـلع فـرآه فى سواء الجحيـم ، قـال : تالله إن كدت لتردين ، ولـولا نعمة ربى لكنت من المحضرين ، فمـا نحن بميتين إلا موتتنا الأولى ، وما نحن بمعذبين ، إن هـذا لهـو الفـوز العظيـم » (٢٧) وهاهـم أولاء قـد ضمهم مجـلس ثـان ، « وأقبـل بعضهم على بعض يتساءلون ، قـالوا : إنـا كنـا قبـل فى أهلنـا مشفقين ، فمـن الله علينـا ، ووقـانا عـذاب السموم ، إنـا كنـا من قبل ندعـوه ، إنـه هـو البـر الرحيم » (٢٨) . ويصورهم « يتساءلون عن المجرمين ، ما سـلككم فى سـقر ؟ قـالوا : لـم نـك من المصـلين ، ولـم نـك نطعـم المسكين ، وكنـا نخـوض مـع الخائضين ، وكنـا نكذب بيـوم الدين ، حتى أتـانا اليقين » (٢٩) « وإذا صرفت أبصارهم تلقـاء أصحاب النـار قـالوا : ربنـا ، لا تجعلنـا مع القـوم الظالمين » (٣٠) أوليس فى هـذا التصوير ما يدفـع الى التفـكير العميـق حـذراً من كارثة مقبـلة .

---

٢٧ ـ سـورة الصافات الآيات : من ٥٠ ـ ٦٠ .

٢٨ ـ سـورة الطـور الآيات : من ٢٥ ـ ٢٨ .

٢٩ ـ سـورة المعـارج آيـة :

٣٠ ـ سـورة الأعـراف آيـة : ٤٧ .

ويملأ هذه الجنة أنساً هؤلاء الزوجات اللاتى جمعن بين جمال الجسم وجمال النفس ، فهن حور كواعب ، كأنهن الياقوت والمرجان ، عين كأنهن بيض مكنون ، أما خلقهن فإنهن يتزين بأجمل صفات النساء وأسماها ، وهى صفة العفة التى عبر القرآن عنها بقصر الطرف ، إذ وصفهن مراراً بقوله : « **وعندهم قاصرات الطرف أتراب** »(٣١). وبذا كله تصبح الجنة كما وصفها القرآن — نعيماً وملكاً كبيراً(٣٢) .

تلك هى الجنة كما رسمها القرآن ، نعيم مقيم ، ولذة دائمة ، ومتعة لا تنفد ، وقد يقال إن القرآن قد أكثر من ذكر اللذائذ الجسمية ، والمتع الجسدية ، ولكن يجب ألا ننسى أن الانسان الطبيعى الكامل جسماً وعقلا يسر لهذه اللذائذ ويهش لها ، ويتمنى أن لو عاش تلك الحياة السعيدة المنعمة ، فليس فى الطبيعة البشرية زهد فى اللذائذ ولا كراهة لها ، فلا جرم كان الوعد بالحصول عليها جزاء العمل الطيب ، مغريا بهذا العمل وحاثاً عليه ، ولم يعمل

---

٣١ — سورة ص آية : ٥٢ .

٣٢ — سورة الانسان آية : ٢٠ .

النـاس ويجـاهدون ؟ إنهـم يعمـلون للحصول على مستوى رفيـع فى الحيـاة ، يمكنهـم من الحصـول على السعادة الجسمية والروحيـة ، ومن يزعـم أن الطبيعة البشرية المثالية تتجـه الى الزهـد أو تميـل إليـه فهـو مغـال مسـرف ، بـل جاهـل بحقيقـة الطبيعة البشرية ، فالنـاس فى هـذه الحيـاة يجاهدون ليصلوا بحيـاتهم المـادية الى مسـتوى سـام رفيـع ، ويحصلوا على أكثـر ما يستطيعون الحصـول عليـه من هـذه السـعادة المـادية ، لهـا يجـاهد النـاس ، ومن أجلهـا تقتتـل الأمـم ، وكـان لذلك وصـف النعيـم كثـيراً فى النفس رغبـة العمـل لنيـله والحصـول عليـه ، وكـان وصـف لذائذ الجنـة المـادية ممـا يتفـق مع طبيعـة الانسان ، والقرآن بهـذا يلحـظ الجانب الواقعى من حيـاة الانسـان • ومع قـوة مـا للنعيـم المـادى من أثـر فى قـوة توجيـه المـرء الى الصـالح النـافع ، لم ينس القـرآن اللذة الروحية فى وصف نعيـم الجنـة ، فهـذا الرضـا النفسى عن نتيجـة الأعمـال التى قدمهـا المـرء فى هـذه الحياة ، والسـرور برضـوان الله ، لـكل هـذا لـذة روحيـة سامية ، بـل لقـد أشـار القـرآن الى أن هـذا الرضـوان من الله أكبر من هـذه اللذائذ حيـن قـال : « **وعـد الله المؤمنين والمؤمنـات جنـات تجـرى من تحتهـا الأنهـار خـالدين فيهـا** ' **ومسـاكن**

طيبة فى جنات عدن ، ورضوان من الله أكبر . ذلك هو الفوز العظيم »(٣٣) ، أرأيت أن القرآن لم يغفل الجانب الروحى فى الانسان ، جانب السرور بمغفرة الله ورضوانه ، وأنه لم يغفل غرائز الانسان التى تندفع الى طلب اللذائذ ، واجدة فى هذه الملذات سعادتها وهناءتها ، ولو أن القرآن اقتصر على وصف اللذة الروحية ، كان فى ذلك الاتجاه انحراف عن الطريق الطبيعى الذى تسير فيه الطبيعة الانسانية السليمة .

---

٣٣ ـ سورة الصف آية :

المبحث السادس

لعلنا لا نشك كل الشك ولا بعضه . فى أن الإعجاز إن لم يكن نابعاً من القرآن نفسه لا يكون إعجازاً ، أو على الأقل يكون محاولة فاشلة ، أو مصاولة هازلة ، ومحاورة غير جدية ، وجهدا لا ثمرة منه ، ولا جدوى من ورائه ، وعقيدتنا أن التحدى للعرب إن لم يكن من الأبواب التى كانوا يدخلون منها ، والأرض التى تعودوا أن يقفوا عليها ، يشبه العبث إن لم يكن هو العبث بعينه ، كما يقول إنسان لآخر غير عالم بالفرنسية أو الانجليزية اقرأ لى هذا الخطاب المكتوب بواحدة منهما . وهو يعلم جهله بهما ، ولو أن القرآن ــ وهو يتحداهم ــ جاء إليهم من طريق لم يعرفوه ، أو دخل عليهم من باب لم يألفوه ، لكانت حجتهم قائمة ، وعذرهم واضحا ، وقد سجل الله سبحانه وتعالى ألواناً من عنتهم الذى قابلوه بها ، والظنون التى ظنوها فيه ، والتهم التى قالوها له ، إذ قالوا سحر وشعر وأساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه ، وإن هو الا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، وهى كما ترى أقوال

لا تصدر عن جار فى المعارضة ، ولا واقف موقف المتحدى الذى يشعر بأنه واقف على أرض صلبة لا تضطرب به ، أو تهتز تحت قدميه . لهذا كان الرسول ﷺ ينظر اليهم نظرة الساخر ، ويغضى عنهم إغضاءه عن الأطفال ، أو حيال التفكير والرأى ، وكان يدرك تمام الإدراك أن هذه الاتهامات التى تصدر عنهم تشبه اتهامات المحدودين أو الحمقى الذين تنطبق عليهم المنافذ ، وتلتوى أمامهم الطرق ، فلا يجدون شيئا يستر عيوبهم ، ويداوى أمراضهم ، أو يغطى على مركب النقص فيهم إلا السباب والطعن ، والسفه والفحش ، أو الرمى بالطوب والحجارة ، وما كانوا جادين فى موقف ، ولا صادقين فى دعوى ، ولا نبلاء فى خصومة ... ويقول القاضى عياض : « إعلم وفقنا الله وإياك أن كتاب الله منطو على وجوه من الإعجاز كثيرة ، وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها فى هذه الوجوه ثم يقول أولها حسن تأليفه ، والتئام كلمة وفصاحته وبلاغته الخارقة عادة العرب ، وذلك أنهم كانوا أرباب هذا الشأن ، وفرسان هذا الكلام وقد خصوا من البلاغة والحكم ، بما لم يخص به غيرهم من الأمم ، وأوتوا من ذرابة اللسان ، ما لم يؤت إنسان ، ومن فصل الخطاب ، ما يقيد الألباب ، جعل الله لهم ذلك طبعا وخلقة ، وفيهم غريزة وقوة ، يأتون منه

على البديهة بالعجب ، ويدلون بـه الى كـل سبب ، فيخطبون بديها فى المقامات ، وشـديد الخطب ، ويرتجزون بـه بين يـدى الطعن والضـرب ، ويخدعون الألبـاب ، ويذللون الصـعاب ، ولهـم فى البـلاغة الحجـة البالغـة ، والقـوة الدافعـة ، لا يشكون فى أن الكـلام طـوع مرادهـم ، والبـلاغة مـلك قيادهم ، فما راعهـم إلا رسـول كـريم بكتـاب عـزيز لا يأتيـه البـاطل من بين يديه ولا من خلفـه « تنزيل من حكيم حميـد » (١) ... ويقول بعـد ذلك ، ومن إعجـازه صـورة نظمـه العجيب ، وأسلوبه الغريب ، المخـالف لأساليب العرب ، ولـم يوجـد قبـله ولا بعـده مماثل لـه ، ولـو استطاع أحـد منهـم مماثلته لفعـل ، ولكنهم حارت فيـه عقولهم ، وتولهت دونـه أحلامهم ، ولـم يهتـدوا الى مثله ، فى جنس كلامهم من نظـم أو نثـر ، وقـد سـمع كـلامه من النبى ﷺ الوليد بن ربيعـة فـرق قلبـه ، ولمـا أنكـر عليـه أبـو جهـل ذلك قـال لـه والله ما منكم أحـد أعـلم بالأشعار منى ، والله ما يشـبه الذى يقـول شـيئا من هـذا .. وفى حديث إسـلام أبى ذر وقـد بعـث أخـاه أنيسـا ليجىء إليـه بخبـر هـذا الرسـول « والله ما سمعت بأشـعر من أخى أنيس لقـد ناقض اثنى عشـر شـاعرا فى الجاهلية أنـا أحدهـم وإنـه انطلق

---

١ ـ سـورة فصلت آيـة : ٤٢ .

الى مكة ... قلت فما يقول الناس قال يقولون شاعر كاهن ساحر ، لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، لقد وضعته على أقراء الشعر فلم يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شعر ، وإنه لصادق ، وإنهم لكاذبون » .. ويمضى صاحب الشفا بعد ذلك حتى يصل فى القول الى ما جرى عليه غيره من حديثه عن المستقبل الذى لا يزال فى طى الغيب ، ووقوعه فيما بعد على الوجه الذى أخبر به لقوله سبحانه : « **لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين** ... **الآية** » (٢) وكقوله فى الحرب مع الروم : « **وهم من بعد غلبهم سيغلبون** » (٣) وكقوله فى التمكين للاسلام وانتشاره فى الأرض ورفع رايته « **ليظهره على الدين كله** » (٤) . وكقوله فى أن المسلمين ستكون لهم دولة : « **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض** » (٥) . فكان جميع هذا كما تنبأ به القرآن الكريم إذ غلبت الروم فارس ثم غلبت بعد ذلك ورجحت الأولى على الثانية ، ودخل الناس فى الإسلام أفواجاً وما مات النبى ﷺ إلا

---

٢ — سورة الفتح آية : ٢٧ .
٣ — سورة الروم آية : ١ .
٤ — سورة النور آية :
٥ — سورة النور آية : ٥٥ .

والجـزيرة كلهـا فى دينـه ، واستخلف الله المؤمنين فى الأرض ، ومـكن لهـم دينهـم الذى ارتضى لهـم ، وملكهـم إياهـا من أقـصى المشـارق الى أقـصى المغـارب ، كمـا قـال ﷺ : « زويت لى الأرض فـأريت مشارقها ومغاربهـا وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منهـا » .

وقـد سـاق أمثـلة كثـيرة من القـرآن تحققت فيمـا بعـد مثـل « **إنـا كفينـاك المستهزئين** » (٦) وقـوله : « **وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبـار** » (٧) وقوله فى المنافقين : « **يخفـون فى أنفسهم مـالا يبدون لك** » (٨) وقـوله : « **والله يعصمك من النـاس** » ويضـيف القـاضى عيـاض الاخبـار عن أشـياء طواها التاريخ ، وعفت عليهـا الأيـام ، ممـا كـان لا يعـلم منـه القصة الواحدة إلا الفـذ من أهـل الكتـاب الذى قطـع عمـره فى تعـلم ذلك ، فيـأتى النبى ﷺ بنصـه كمـا هـو ، وقـد علمـوا أنـه لـم يقـرأ ولـم يكتب إلا أنـه يتـلوه عليهـم كمـا هـو كقصـص الأنبيـاء مـع قومهـم ، وخبـر مـوسى والخضـر ، ويوسـف

---

٦ — سـورة الحجـر آيـة : ٩٥ .

٧ — سـورة آل عمـران آيـة :

٨ — سـورة آل عمـران آيـة :

وإخوته ، وأصحاب الكهف ، وذى القرنين ، ولقمان وابنه ، وإن كنا نحن لا نزال على رأينا الذى أعلناه من أن حديث الإعجاز عن القرآن يجب أن يكون انبثاقه من القرآن نفسه ، ولذلك كان الذى أتى به الراغب الأصفهانى فى مقدمته لتفسيره للقرآن جيدا الى أبعد حد ، إذ جعل العبرة للصياغة ، وقال إن الألفاظ قدر يشترك فيه معهم . وليست وقفا عليه ، والمعانى كذلك : « **وإنه لفى زبر الأولى** »(٩) والصياغة هذه هى كل شىء ، ومادة أصل الأشياء تتفق كالذهب والفضة ثم يصوغ منها الصائغ الخاتم والقرط والمعقدة ، ويكون الواحد من هذه بألف والآخر الى جانبه لا شىء والأصل واحد . لكن الصائغ الذى تفاوتت به القيمة ليس واحدا ، والصياغة هذه هى التى سماها عبد القاهر الجرجانى النظم الذى هو عنده توخى معانى النحو ... وعلى كل حال فإن القاضى عياض يسترسل فى حديثه هذا عن الإعجاز فيذكر أن من أمارات ذلك الروعة التى تلحق قلوب سامعيه عند سماعه ، والهيبة التى تعتريهم عند تلاوته ، لقوة حاله ، وإنافة خطره . وهى على المكذبين أعظم .

---

٩ — سورة الشعراء آية : ١٩ .

حتى كانوا يستئصلون سماعه ، ويزيدهم نفورا — كما قال تعالى — ويودون انقطاعه ، لكراهيتهم له ، وأما المؤمن فلا تزال روعته به ، وهيبته إياه ، مع تلاوته توليه انجذاباً وتكسبه هشاشة ، لميل قلبه إليه ، وتصديقه به • كما قال تعالى : « **تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله** »(١٠) • وكما قال : « **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله** • **وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون** »(١١) ويدل على هذا أنه يعترى من لا يفهم معانيه ، ولا يعلم تفسيره خشية ومهابة ، ورعدة وخوف ، وحذر وتوجس ، حكى فى الصحيح عن جبير بن مطعم قال : سمعت النبى ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية : « **أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون • أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون • أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون** »(١٢) كاد قلبى يطير للاسلام •

---

١٠ — سورة فصلت آية :

١١ — سورة الحشر آية : ٢١ .

١٢ — سورة الطور الآيات : من ٣٥ — ٣٧ .

وعن عتبة بن ربيعة أنه كلم النبى ﷺ فيما جاء به من خلاف قومه فتلا عليه : « **حم والكتاب المبين تنزيل من الرحمان الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون وقالوا : قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون — فلما وصل الى قوله جل شأنه — فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود** » (١٣) أمسك عتبة يده ووضعها على فيه وناشده الرحم والقرابة أن يكف عن القراءة لأن قواه قد انهارت ورجع الى قومه ليقول لهم والله لقد كلمنى كلاما ما سمعت أذناى بمثله قط ، وما دريت ما أقول له . ويقول القاضى عياض — أيضاً — ومن وجوه إعجازه — كذلك — أنه آية باقية تكفل الله بحفظها مصداقاً لقوله : « **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** » وقوله : « **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه** » . وسائر معجزات الأنبياء عليهم السلام انقضت بانقضاء أوقاتها فلم يبق إلا خبرها ، والقرآن

---

١٣ — سورة فصلت من أول السورة .

١٤ — سورة الجن الآيات : من ١ — ٢ .

الكريم الباهرة آياته ، الظاهرة معجزاته ، منذ نزوله الى وقتنا هذا ، وفصحاء اللسان ، وأئمة البلاغة ، وفرسان الكلام ، وجهابذة البراعة ، لم يؤثر عنهم شيء فى معارضته ، ولا ألفوا كلاما فى مناقضته ، بل المأثور عن كل من رام ذلك إلقاؤه فى العجز بيديه ، والنكوص على عقبيه ، ولم تلبث الجن حين سمعته أن قالوا : « **إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد فآمنا به** »(١٤) ويقول : ومن وجوه إعجازه جمعه لعلوم ومعارف لم تعهدها العرب عامة ، ولا محمد ﷺ قبل نبوته خاصة ، ولا يحيط بها أحد من علماء الأمم ، ولا يشتمل عليها كتاب من الكتب .

يقول الجاظ : بعث الله محمدا ﷺ أكثر ما كانت العرب شاعرا وخطيباً ، وأحكم ما كانت لغة ، وأشد ما كانت عدة ، فدعاها أقصاها وأدناها الى توحيد الله ، وتصديق رسالته ، دعاهم بالحجة ، فلما قطع العذر ، وأزال الشبهة وصار الذى يمنعهم من الإقرار الهوى والحمية ، دون الجهل والحيرة ، حملهم على السيف فنصبوا له الحرب ، ونصب لهم ، وقتل من عليتهم وأعمامهم وبنى أعمامهم ، وهو فى ذلك يحتج بالقرآن ويدعوهم صباحاً ومساء الى أن يعارضوه إن كان كاذباً ، فلم يرم ذلك خطيب ، ولا طمع فيه شاعر ، ولو طمع فيه تكلفه ، ولو تكلفه لظهر ذلك ، ولو ظهر

لوجد من يستجيده ، ويحامى عنه ، ويكابر فيه . فدل ذلك على عجز القوم مع كثرة كلامهم ، واستجابة لغتهم ، وسهولة ذلك عليهم ، وكثرة شعرائهم فمحال — أكرمك الله — أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغاط فى الأمر الظاهر ، والخطأ البين ، مع التقريع بالنقص ، والتوقيف عن العجز ، وهم أشد الخلق أنفة ، وأكثرهم مفاخرة ، والكلام سيد عملهم ، وقد احتاجوا اليه ، والحاجة تبعث على الحيلة فى الأمر الغامض ، فكيف بالظاهر الجليل المنفعة ، فكذلك محال أن يتركوه وهم يعرفونه ، ويجدون السبيل إليه وهم يبذلون أكثر منه ..

ونحن من هذا التلخيص الذى نقلناه عن صاحب كتاب « الشفا فى أخلاق المصطفى » نستطيع أن نقول ظفرنا بكثير من الفوائد فى هذا الموضوع ، ونستطيع أن نقول إنه أحسن من غيره بكثير ، وقد كان من الكاتبين الذين اشتهرت كتابتهم فى هذا الموضوع شهرة لا تقل عن الباقلانى جماعة طبعت لهم — حديثاً — ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن حققها وأشرف على طباعتها المرحوم الدكتور / محمد خلف الله عميد كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، إحداهما لعلى بن عيسى الرمانى المتوفى سنة ٣٨٤ هـ ، وكان إماماً فى علوم العربية ،

وكـان يقـول عنـه أبـو على الفـارسى إن كان النحـو هـو ما عند الرمـانى فليس عندنا منـه شىء وليس فى رسالته جـديد عن هـذا الذى عرفنـاه ، وكـان ممـن يقولون بصـرف الله العرب عن معارضـة القـرآن ...

والرسـالة الثانيـة لأبى سليمان حمـد بن محمـد بن إبراهيم الخطـابى البسـتى المتـوفى سـنة ٣٨٨ هـ ، وكـان من أعـلام المفكرين المسلمين ، وكـانت رسالته كـذلك ترديداً للآراء المتداولة فى الإعجـاز إلا أنـه كـان من هؤلاء ، الذين لم يعجبهم القـول بالصرفة ، وكـذلك لـم يعجبـه الـرأى القـائل بأن من وجـوه الإعجاز الاخبار عن المستقبل لأنـه لـم يتوفر لكل السور ، وكذلك يـرى ما يـراه الباقلانى من أن الإعجـاز لا يدركـه إلا أهـل البيـان والفصـاحة ..

أمـا الرسـالة الثالثـة فهى لإمـام العربية عبد القاهـر الجرجـانى الذى لا يـرى أن الاعجـاز مصـور فى شىء وراء البيـان الواضـح ، والفصـاحة الظاهـرة ، والبلاغة النـادرة ، وربمـا كانت رسالته هـذه إجمـالا لرأيـه الذى ظـل يعلنـه فى كتابيه دلائـل الإعجـاز ، وأسـرار البلاغة باسـم النظـم الذى هـو عنده توخى معانى النحـو ، يقصـد بتوخى معانى النحـو ،

أن تأخذ كل كلمة خيرها الذى يقتضيه علم النحو من التقديم أو التأخير ، وحالها الإعرابى من النصب أو الرفع ، والتأكيد أو عدمه ، والحال أو التمييز .. وهكذا من كل ما يطرأ على الكلمة فى كل أحوالها تعريفا ، أو تنكيرا ، ومراعاة النحو هذه المراعاة هى النظم الذى هو صميم البلاغة التى ترتفع حتى تصل الى درجة الإعجاز وهو سيد من يصول ويجول فى هذا الميدان .

الدكتور / محمد حسين على محمود
أستاذ الأدب المساعد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات — جامعة الأزهر — سوهاج

من مراجـــع هـــذا البحـــث

١ — القــرآن الكــريم .

٢ — الكشــاف فى تفســير القــرآن الكــريم للزمخشرى .

٣ — دلائل الإعجــاز وأســرار البــلاغة لعبد القاهــر الجرجانى .

٤ — الشــفا فى أخــلاق المصطفى للقــاضى عيــاض .

٥ — تفســير القــرآن الكــريم للراغب الأصفهانى .

٦ — تأويــل مشــكل القــرآن لابن قتيبــة .

٧ — كتــاب البرهــان للزركشى .

٨ — الإتقــان للسـيوطى .

٩ — ثلاث رســائل أشــرف على تحقيقها الدكتور محمــد خلف الله أحمـــد :

(أ) رسالة لعــلى بن عيسى الرمانى المتوفى ســنة ٣٨٤ هـ .

(ب) رسالة لأبى سليمان حمــد بن عــلى الخطابى المتوفى سنة ٣٨٨ هـ .

(ج) رسالة لعبد القاهــر الجرجــانى .

١٠ — تنــزيه القــرآن عن المطــاعن والبهتان للقــاضى عبد الجبار الهمــزانى .

١١ — آراء حــرة للأستاذ فتحى رضــوان .

١٢ — الصحيحان : البخــارى ومســلم .

رقـم الإيـداع
٦٢٣١ ـ ٩٣

* مطبعـــة زهـــران *
٤ ش حمام المصبغة ــ الأزهر
١٦ ش الدرديرى ــ الأزهــر
ت : ٥١٠٧٥٥٤

فهـــرس المجـــلة

الموضـــوع	صفحة
١ ــ رثاء مصطفى كامل فى وجدان شاعرى مصر شوقى وحافظ د• محمـود جمعـة أمين	١
٢ ــ من ملامح التطور والإبداع الروائى عند نجيب محفوظ د• محمـد حسين على محمـود	٧٥
٣ ــ العبـد الصـالح وموسى الكليم د• رشـاد حسـن عـلى	١٢٩
٤ ــ يسر الإسلام فى التكاليف والأحـكام د• رشـاد حسـن عـلى	١٧٧
٥ ــ جمـاعة الديـوان والرومانسية د• محمـد حسـين عـلى	٢٠٧
٦ ــ التصوير البيـانى بين ابن الرومى وابن المعتـز د• محمـد الأمـير محمـد السـيد	٢٥٥
٧ ــ الصـور البلاغية فى سـورة الغاشية د• مـنى محمـد عـلى	٣١٧
٨ ــ أصـول الإيمان والشرائع والأخلاق فى القرآن الكريم د• محمـد زين العابدين مصطفى	٣٥٥
٩ ــ من الإعجـاز البيانى فى القـرآن الكريم د• محمـد حسـين عـلى	٣٩١